

البيت معهد حر

البيت فى الاقطار المتقدمة فى أوربا وأمريكا معهد حر لا تسوده سلطة الأب الا توقراطية. ينشأ فيه الاولاد فى مجتمع راق مختلطون بالضيوف ويجدون فى هذا الاختلاط تدريرا وتدريبا على المعاملة والائناس والحديث والكلمة العذبة ، والعبارة المهذبة . كما تجد الزوجة فيه مجالا لترقية شخصيتها بما تتحمل من تبعات نحو زوجها وأولادها .

وكلمتا البيت والعائلة تندجان فى معناهما . والبيت الا مثل هو الذى تسود المساواة فيه أعضاء العائلة ليس بين الزوج وزوجته فقط بل بينهما وبين الاولاد

وإذا كان هؤلاء فى سن صغيرة يحتاجون إلى الإرشاد فانه يجب أن يكون خاليا من الاستبداد والتسلط . لأننا يجب أن ننشد مبادئ الثورة الكبرى ، أى الثورة الفرنسية ، فى البيت قبل أن ننشدها فى المجتمع . أى يجب أن نعمم مبادئ الحرية والاخاء والمساواة بين أعضاء البيت قبل أن نعممها فى المجتمع . ويجب أن يتمرن أعضاء العائلة على ممارسة النظام الديمقراطي فى البيت قبل أن يمارسوه فى المجتمع .

واعظم ما يكون الشخصية فى الرجال والنساء هو الحرية .
أى الحرية التى تلتقى على عواتقهم تبعات وواجبات يتحملونها .
فيؤدى تحملها إلى نموهم . وإذا انعدمت الحرية من البيت استحال
إلى سجن . وبعيد بل محال أن تتكون الشخصية فى السجن حيث
لا مجال للحرية أى للاختيار والتفكير واحساس التبعة والواجب ،
هذا الاحساس الذى ينشط الذهن والجسم ويحمل على
التفكير والعمل .

وفن الحياة هو فى النهاية فن تكوين الشخصية . إذ ليس
شئ أجمل فى هذا الكون من الشخصية اليانعة التى عاش صاحبها
فى حرية الفكر والعمل وفى تحمل التبعات والواجبات حتى
تدرب وتمهر وصارت له فلسفة تعين اتجاهاته وغاياته . فهو
يسير فى الدنيا وهو على نور وهدى .

ونحن فى مصر ، للعبء الباهظ الذى نحمله من تقاليدنا
الماضية ، نتوجس من الحرية ونخشى الاختلاط ونضع القيود
والحدود هنا وهناك أمام الأطفال والفتيات والسيدات . فلا
تجد شخصياتنا التربوية التى تؤدى إلى انضاجها وإيناعها . فينشأ الشاب
وهو فى خوف من الدنيا لا يقتحم فى تفكيره أو عمله . وتنشأ
الفتاة وهى بحجة مراجعة ملتزم الصمت والسكون والاستحياء

والتراجع كأنما هذه خطة حياتها. فلا تحيي الحياة المليئة ولا تزددان
برشاقة الايماء ولباقة الكلمة ولذلك تخسر كثيراً من جمالها
الروحي ، هذا الجمال الذي لا يعوض منه جمال الجسم الذي يبدو
راكداً جامداً . وهو كذلك بالمقارنة إلى الفتاة الاوربية التي
تتذبذب حيويتها طرباً في شخصية مغنطيسية تواجه الدنيا في
شجاعة وانطلاق واستطلاع في حين تواجهه فئاتنا المصرية
دنياهها في تقلص وخوف من الاستطلاع . وذلك لأن الأولى
عاشت في حرية في حين عاشت الثانية في قيود التقاليد .

ولذلك يقتضينا فن الحياة أن نجعل الحرية تستفيض في
البيت . وإذا قضى الحظ أن يتزوج الشاب فتاة دونه في الثقافة
فيجب أن يدأب في رفعها إلى مستواه وأن يجعل من وسطه
الاجتماعي ما يحملها على الارتقاء نغني بذلك أن نختار من الضيوف
والزائرين ، الذين يتبادلواياهم الزيارة ، أولئك الأحرار
المتعلمين الذين يحضرونها الى أن تشقف عقلها وأن نتجه
الاتجاهات التي تزيد البيت فناً وجمالاً كما تزيد حياتها نضجاً وإبداعاً
وقد يتعب الشاب في سلبه الأولى من الزواج وهو يوجه
زوجته هذا التوجيه ولكنه يجد المكافأة بعد ذلك على هذا
التعب في سنوات عديدة من الهناء الذي تثمره مزاملة قائمة على
المساواة الحققة في الميزات والتأنقات الذهنية .

أما إذا أهمل تشقيفها فإنه سرعان ما يجد الانفصال الروحي قائما بينه وبينها بحيث يعيشان وكأنهما جاران يشتركان في مأوى وكما نخشى نحن حرية المرأة كذلك نخشى حرية الصبيان فنحرمهم مما لا نحرم منه حتى الحيوانات التى يتمتع أطفالها بالطفولة والصبا فنهقهم بالدرس فى الوقت الذى تصرخ فيه طبيعتهم بالرغبة فى اللعب والمرح. بل أحيانا ، وحين يزورنا ضيوف ، نحاول أن نمنعهم من الاختلاط بهم وبذلك نحرمهم من التربية الاجتماعية الحسنة التى يستعيبون منها تربية اجتماعية فاسدة باختلاطهم بزملاء لهم قد نشأوا فى بيئة غير حسنة .

وشبابنا فى مصر يجهلون أشياء كثيرة عن البيوت الاوربية والافرنكية . وهم يقرأون القصص أو يرون المسرحيات السينمائية التى تعرض شذوذات الحياة أكثر مما تعرض قواعدها فيتوهمون السوء والزيف فى حياة المتمدنين . ويشأون على استمساك بالحياة الشرقية التقليدية ويتعصبون لها . فينكرون الحرية على المرأة والأولاد ويمارسون معهم حياة الانكفاف والاحجام، تلك الحياة التى تجعلهم يعيشون فى نسك أو مايقاربه، ويكرهون متع الحياة العائلية ويتوقونها .

أجل . إن شبابنا يجهلون ان الخادمة الاوربية تقتنى مكتبة

فى غرفتها لا تقل مجلداتها عن مائتى أو ثلاثمائة مجلد وهى تصر
على أن تكون لها ساعات فراغ للقراءة والدرس . ويجهلون أن
الضيافة لا تنقطع فى البيت الأوربى الراقى . وأن الأولاد
يدعون أصدقاءهم إلى ولائم فى البيت فيجدون التشجيع من
آبائهم على هذا النشاط الذى يكسبهم المراتة الاجتماعية
والضيافة الراقية . وأن الاختلاط بين الجنسين لا ينقطع منذ
الطفولة إلى الشيخوخة وهذا الاختلاط يدرب الفتى والفتاة على
الرشاقة ويوجه الغرائز الجنسية وجهتها السوية ويمنع الشذوذات
البشعة التى تفشو فى المجتمعات الانفصالية فى الأمم الشرقية .
فالحياة هناك أملا وأمتع والشخصية أتم وأينع .

يجب أن نعيش في حاضرننا

نحن لا نعيش حياة واحدة لأن لنا حيوات مختلفة : حياة الطفولة ثم الصبا ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة . ولكل من هذه الحيوات أفراحها وأتراحها واختباراتها وليس من حق أحد ، كالوالدين أو المربين ، أن يحرمنا من إحدى هذه الحيوات . وإذا فالتنا حياة الصبا بلا تمتع ، وإذا عوملنا في أثنائها كما لو كنا شباناً ، فاننا عندئذ نكون بمثابة من لم يحيي حياة معينة كان من حقه أن يحياها . إذ هي لن تعود .

ولكن هذا هو ما نرى في عصرنا . فان كثيراً من الآباء يحرمون أبناءهم من صباهم ويكلفونهم واجبات الشباب إعداداً للمستقبل . كأن الحاضر لا قيمة له ، وكأنه يجب أن يضحي به من أجل المستقبل ، كما يضحي بالصبا من أجل الشباب . وكثيراً ما نرى صبياناً بين الثامنة والخامسة عشرة يقضون فراغهم بعد المدرسة في الدراسة إما بضغط آبائهم وإما بترتيبات جهنمية حين يحضر المعلمون اليهم في البيت ويقهرونهم على الدرس . مع أن هذه الفترة من العمر تنادى باللعب والمرح وبالتجارب التي يختبرها الصبي لفهم الدنيا . وليس من حقنا أن نحرمه منها .

وهنا نعود إلى القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية . فان

الأولى تطالبنا بمعاملة الصبي باعتباره أنه صبي فقط يعيش ويستمتع بحاضره . لأن هذا هو حقه الطبيعي . ولكن القيم الاجتماعية تتغلب علينا فنفسكر في مستقبله . ولأننا نخشى هذا المستقبل ، للمباراة العامة التي نتوهم أنها تسوده ، نبالغ في تفكيرنا إلى حد القلق فلا نفسكر في منطق وتعقل ولكن في خوف وفزع . ونسرف في تأكيد الدراسة وحرمان الصبي من صباه أى حرمانه من إحدى حيواته التي لن تعود إليه . ولو عقلنا لأحسننا الإجرام في هذا العمل .

وليس من شك في أن نظام المباراة الذي نعيش فيه، والذي يسود مجتمعنا، يجعلنا جميعاً في خوف دائم من المستقبل. ولذلك نكاد نقضى عمرنا كله في التهيؤ لهذا المستقبل . وهذا الخوف يستحيل أحياناً إلى قلق نيوروزى أى إرهاق نفسى نعجز عن تحمله وهو يبدو في خوف أو فزع . فان البخيل الذى يحرم نفسه من المتع الصغيرة وهو يجمع قرشاً على قرش إنما يفعل ذلك لمركبات نفسية هى في حقيقتها أمراض يحتاج إلى المعالجة منها . وهو حين يسأل عن الأسباب التى تحمله على هذا البخل يجيب بأنه يخشى المستقبل ويتهيأ لليوم الأسود بالقرش الأبيض . مع أن من يتأمل صميم نفسه يعرف أنه لن يخرج هذا القرش

الأبيض المدخر مهما اشتدت الحلوكة في هذا اليوم الأسود
المنتظر . لأن الواقع أن البخل نشأ عنده من الخوف من المباراة
العامة التي لا تجعل أحدا مطمئناً على مستقبله فأسرف في التهيؤ لهذا
المستقبل . واتجه الوجهة النفسية التشاؤمية حتى صار البخل
عادة . وهذه العادة تجعله يعيش على هامش الحياة التي قد تطول
ولكنها تطول هزيلة بلا عرض أو عمق . والعادة لشبوتها تحرمه
من الترفيه عن نفسه مهما ساءت الأحوال .

ونحن جميعاً نحتقر البخل . ولكننا ننسى أننا حين نحرم
الصبى من صباه إنما نتجه وجهة هذا البخل في الخوف من
المستقبل . وننسى أننا حين نرصد من وقتنا أحسن ساعاته
لاقتناء العقارات والأثراء إنما نتجه هذه الوجهة أيضاً وإن كنا
لا نبلغ درجة البخل في الحرمان .

وفن الحياة يقتضينا أن نعيش في حاضرننا فنتمتع بمتع
الطفولة في طفولتنا . ومتع الصبا في صبانا ومتع الشباب في
شبابنا . ولا نؤجل شيئاً من ذلك تهيواً للمستقبل . لأننا لسنا
واثقين من هذا المستقبل نقتنا بالحاضر . فإذا حرمننا الشباب من
متع شبابه بدعوى أنه يستعد للمستقبل فأننا لاثق بأنه سيعيش
لى هذا المستقبل المنتظر .

ولسنا مع ذلك ننكر هذا المستقبل ونتعاض عنه . ولكننا
نعتقد أن من يعيش في حاضره إنما يعيش أيضاً لمستقبله .
ونعني المعيشة السليمة . فان هناك فرقاً بين اثنين يخافان
المستقبل . أحدهما يبخل ويقتصر ويبالغ في الحرمان والآخر
يؤمن بأداء قسط سنوي لأحدى شركات التأمين مثلاً

وهناك أيضاً فرق بين تلميذ يدرس في المدرسة ويلعب
خارجها أو يستمتع بصباه أو شبابه ، وبين آخر يرهق بتكاليف
مدرسية أخرى في بيته ، تراه قد حبس نفسه بعيداً عن والديه
وأخوته وسهر الليالي

والرجل السوي الذي تتزن أعصابه يكتسب من حاضره
بصيرة لمستقبله ويستطيع لذلك أن ينظر إليه مطمئناً فلا ينجح
إلى التقدير ولا يهرول في جهده لاقتناء المال

وإذا عشنا في حاضرنا ومارسنا اهتماماته وهومومه ، وتمتعنا بمتعه
فاننا بهذا السلوك نفسه ، نجدنا قد استعددتنا للمستقبل . فالرجل
الذي تعود مثلاً القراءة واقتناء الكتب ومداومة القراءة للجريدة
والمجلة إنما يتمتع بكل هذه الممارسات ولكنه زيادة على ذلك
يتهمياً بها لشيخوخة يقظة بعيدة عن السأم والتبلىد .

وكذلك الرجل الذي مارس عملاً كاسباً وانتفع بالتأمينات

المألوفة يسير نحو المستقبل في طمأنينة .

أما إذا كانت الأيام حبيلى بمفاجآت ، كما رأينا فى الازمات الاقتصادية الماضية ، فان بصيرة الماقل وفزع المجنون وتقدير البخيل ، كل هذا يستوى أمام تلك المفاجآت . أى جميعنا عندئذ سواء . وعندئذ ينتقل الاهتمام بالمستقبل من يد الفرد إلى يد الدولة

ومن المؤلف أن نجد شخصاً يكبد متعباً مهموماً فى اقتناء الثروة وفى نفسه شوق إلى الاستمتاع فهو يحلم بالبيت الذى سوف يبنيه أو ببضعة الفدادين التى سوف يزرعها ويجد فيها الاتصال بالطبيعة . أو هو يحلم بالسياحة فى أوروبا . وقد يحلم أيضاً باستمتاع ثقافية مختلفة ويضع فى برنامجه شراء مكتبة تحوى آلاف المجلدات التى تنيره وتشغفه . ويفعل ذلك وهو فى الثلاثين أو فى الأربعين ويرصد كل وقته للجمع والاقتناء والاثراء

ومثل هذا يجب أن نقول له : أنت مخطئ . لأنك حين تصل إلى سن الستين تكون العادات التى مارستها كل يوم من حياتك الماضية قد رسخت فىك فلن تستطيع تغييرها .

ثم وأنت فى الستين سوف تكون لك أذواق تختلف عما لك الآن وأنت فى الثلاثين أو الأربعين

ولذلك يجب أن تعيش في حاضرك وتبدأ الآن في
استمتاعك وتحقيق أحلامك . ولا تؤجل متعك إلى سنين
قادمة ربما تموت أنت قبل بلوغها . أو ربما تموت كفاءتك
للاستمتاع بها . اذ أن لكل سن متعها الخاصة . فمتع الشباب غير
متع الكهولة ومتع الكهولة غير متع الشيخوخة . ومتع الصبا
غير متع الشباب .

النمو والتطور

عندما تتأمل رجلاً جامداً رجعياً وآخر متطوراً ارتقائياً نجد أن لكل منهما اتجاهها قد عين مزاجاً خاصاً . فالأول في صميمه متشائم يخشى الدنيا ويتوقع الكوارث ولا ينتظر خيراً من أى تغيير . وهو لذلك متبلد يؤثر السكون على الحركة . فى حين أن الثانى ، ذلك المتطور الذى لا يبالى التغيير ، متفائل بالدنيا يؤمن بالارتقاء كأنه ديانته السياسية وهو يدعو إلى مهضة ما فى السياسة أو الاقتصاد أو إلى تغيير فى الأدب أو الاجتماع . ولذلك نستطيع ، فى معنى ما ، أن نعد الجمود والرجعية مرضين يلبسان من الخوف .

وقد يكون المرجع والاساس لهذا الخوف أن الرجعى قد أسيدت معاملته أيام طفولته فأهين وضرب أو عومل بالسكرامة والقسوة حتى صار بعد ذلك يجد أن السلامة والطمأنينة لا تكونان إلا فى استبقاء حالته ، إذ هو على الدوام يتوقع أسوأ منها ، وفى تجنب أى تغيير إذ هو يوجس شراً مما هو فيه .

والجامد الرجعى لا يحى الحياة الطبيعية . لأن انمو والتطور من سنن الطبيعة التى تشهد بهما الف مليون سنة من تاريخ

الأحياء . ومعنى هذا أنهما أصيلان فى أعماق سريرتنا وأننا لن
نعيش المعيشة السوية ولن نقارب السعادة ، أو على الأقل
السعادة السلبية ، إلا إذا كنا فى نمو وتطور لا ينقطعان طوال
حياتنا .

بل أحيانا ، حين نتأمل أحلام اليقظة التى نستسلم اليها فى
لذة ، نجد أننا نطلب التطور كما لو كان شهوة فى نفوسنا . أى
أننا نحس أننا غير راضين عن حالتنا إذ ندأب فى التفكير فى
تغييرها . وليس الإيمان بالمستقبل ، بل بالشجاعة والإقدام
سوى إيمان بالنمو والتطور والارتقاء . وكذلك ليست المحافظة
والجمود والرجعية سوى الجبن والخوف . وكلاهما يحملنا على
الركود والتقلص .

والأمم الشرقية ، لفرط ما عانت من مظالم ملوكها
وأمرائها وحاكميها يغلب عليها الجمود إذ هى على الدوام متشائمة
بالمستقبل تخشاه وتراجع عنه كأنها تريد أن تعيش فى الماضى .
أما الأمم الأوروبية فتكاد ترقص للمستقبل وهى ترضى بالتغيير
والتطور وقد جعلت الارتقاء مذهباً

وايس من السداد هنا أن ننصح للقارىء أن يكون متفائلاً
وأن يتجنب التشاؤم . لأن هاتين الحالتين قد تكونتا فى الأغلب

منذ الطفولة أو لأن كوارث الحياة قد تراكت فملأت القلب شكوكا وشبهات بشأن المستقبل . ولكن من السداد أن نبين أننا ان نستطيع ان نتطور ، أى نعيش وفق سنن الطبيعة ، ما لم نكن متفائلين . وعلى كل قارىء عندئذ ان يحلل تشاؤمه وخوفه وأن يعرف مرجعهما . وهو إذا هبط على هذا المراجع عاد إلى التفاؤل والشجاعة .

واوضح المظاهر للأرتقاء والتطور والنمو هو الثقافة . وصحيح ان هناك من يتجه ارتقاؤهم وجهة مالية أو اجتماعية أو سياسية فيبرزون فى هذه الجهات ويحنون منها ثمرات السرور . ولكنها بالمقارنه إلى الثقافة تد ثمرات زائلة متقلبة ليست لقيمتها ثبات القيم الثقافية .

ذلك أننا عند ما نرقى بالثقافة ارتقاء نفسياً ذاتياً لا يستطيع احد او ظرف ان ينتزعه منها . والنفس تتطور بالتغير الثقافى فتتجدد وكأنها تستعيد الصبا او الشباب وتهبط على عرالم جديدة لم يكن لها بها معرفة من قبل .

والذى نحب أن نشبته ونؤكد انه ما دمنا فى تطور ثقافى فإننا نتجنب السأم والجود والتبلد فتمتلئ الدنيا حولنا مباهج فلا يكر بنا اليأس بل نتحمل حتى الكوارث المرهقة .

وإذا اعتدنا الثقافة فإن الأغلب اننا نخرج منها بمذهب كفاحي للخير البشري . وهذا المذهب يغدونا وينير بصيرتنا عن مغزى الحياة كما انه يوفر لنا اهتمامات لا تنقطع . وما دمنا في هذه الاهتمامات فانتا لن نحس هذا السأم القاتل الذي يغمر حياة المنغمسين في الملذات حين يأجمونها متبرمين منها عازفين عنها .

وفن الحياة هو ، في معنى ما ، فن العيش في سرور إن لم يكن في سعادة . ولذلك يجب أن نوفر لأنفسنا احساسات السعادة بإيجاد وسائل الرفاهية الذهنية والمادية .

وعندما نعمد إلى دراسة ، نحس إحساساً عميقاً بلذة التطور . ولذلك نحتاج ، كي نوفرها ، إلى برامج ثقافية متواصلة تحملنا على مراحل الحياة وتكفل لنا شباب الذهن وتجده .

وكذا تقدمنا في السن ، وخاصة عندما نتجاوز الستين ، يتواني نشاطنا وقد نتبدل أو نجمد . ولكن ، إذا كنا قد تعودنا الدراسة وجعلنا منها منهجاً للحياة ، فاننا ندخل في دور الكهولة والشيوخوخة ونحن مستبقين لشبابنا مبهجين بالدنيا قد احتفظنا بكلمات اللغة اى بالأفكار . وقد كررنا هذا الكلام . ولكن مهما نكرره فاننا في حاجة إلى تأكيد إذ ليس هناك ضمان

للشيخوخة السعيدة إلا مع الثقافة الدائمة التي تستبقى الذاكرة
في حيويتها القديمة .

وهناك ألوان من الارتقاء كثيرا ما نأججه . فأننا عندما
نندفع في اقتناء المال ، او عندما نبذل جهودنا كي نحصل على
مركز اجتماعي كنا نطمح اليه ، نجد ان الهدف الذي وصلنا
اليه دون ما املنا وتمنيتنا من حيث قيمته في جلب السرور إلى
فئوسنا . إلا الثقافة فإنها تملأنا غبطة ولذة اكبر مما كنا نحلم به
ولعل مرجع هذا ان آفاق الثقافة واسعة متشعبة ليست لها
نهاية في حين ان المركز الاجتماعي او المالى نهاية . ولذلك لن
نعرف السأم إذا جعلنا غايتنا من النشاط والنمو ثقافية .

الاتصال بالطبيعة

لا يسهل على أى انسان أن يتجرد من القيم الاجتماعية ،
أو حتى يتسامح فى الكثير منها ، إلا بمجهود شاق يضديه و يقيم من
المجتمع ، الذى يرتضى هذه القيم ، خصما له . ولكن يجب أن
نذنبه من وقت إلى آخر إلى هذه القيم الاجتماعية ، حتى لا نلساق
فيها ذاهلين . وحتى لا نندى اننا بشر قبل أن نكون مصريين
أو فرنسيين أو عرباً . واتصالنا بالطبيعة جدير بأن يحدث لنا
هذا الوجدان .

ذلك أن حياة الحضارة تغمرنا وتسومنا أوزانها وقيمها .
فالنجاح فيها يقاس بالقدرة على اقتناء المال . والجمال فيها اثاث
فاخر أو جواهر غالية أو أتومبيل مطهم أو رسم على جدران
أو نحو ذلك مما نلساق فيه فنتوهم اننا سادة نختار ونقرر مع أن
الواقع ، انما فى الأكثر ، عبيد العرف الاجتماعى الذى يأبى
علينا الاستقلال .

ومن وقت لآخر نرى أو نقرأ عن أولئك البشريين الثائرين
على هذا العرف الاجتماعى . مثل تولستون الذى هجر المدن
وعاش فى عزبته يصنع حذاءه بيديه . أو غاندى الذى نزع عن

جسمه ملابس الحضارة وقنع بشملة يبسطها على عاتقيه أو يأتزر بها . وهذا إلى قنوعه من الطعام باللبن والفواكة . أو ثورو الكاتب الأمريكي الذي ترك المدن وبني لنفسه كوخاً لم يكافئه أكثر من ستة جنيهات عاش فيه سنتين إلى جنب الغابة حيث كان يحصل على طعامه من صيد السمك وصغار الحيوان والطيور . وقد قال عن هجرته هذه في الغابة وحياة الفطرة .

« إنى اردت أن أسوق الحياة وأخرجها في زاوية كي أعرف هل هى شىء جليل أم حقير ؟ »

وبكلمة أخرى أراد ثورو أن يخلو إلى نفسه ويستمتع الى همساتها بعيداً عن ضوضاء المدينة وضجيج الحضارة ، خالياً من تكاليفها الصغيرة والكبيرة كي يستكنه اسرارها ويصل الى أصولها ويتعرف الى الطبيعة ويقف على علاقته منها ومراسيه فيها . وكلنا يحس في أعماق القلب والمنح اننا فى حاجة الى مثل هذه التجربة . وان العمر لا يصح أن يقضى على هذا الكوكب وهو مبعثر بين هموم واهتمامات صناعية أى صنعتها لنا الحضارة . ولذلك يجب على كل من يندش الحياة الفنية أن ينظم هذه الحياة بحيث لا تنقطع عن الطبيعة وبحيث تبقى القيم والاوزان البشرية ماثلة فى ذهنه عالقة بقلبه يشتهيها ويتعب لها ويستمتع بها .

وهو عند ما يفعل ذلك ، وعند ما يألف الطبيعة ، سيحس أنها
أبى الطبيعة تحوى ألوانا من الجمال فى الشفق عند الغروب ، وفى
بزوغ الشمس عقب سكونة الفجر ، وفى رهبة الجبل ، وبسطة
الصحراء ، بل فى تنوع النبات والحيوان ، مما يجعله يحتقر
الكثير مما تحملنا الحضارة على اقتنائه ونعتنى فى جمعه والتفاحر به
وليس من الضروري أن نسلك سلوك ثورو فى الهجرة
الى مكان قصي نعيش مستوحدين سنتين أو أكثر كي نصل الى
جمال الطبيعة وكى نهتدى الى مراسينا منها . فان اللجوء الى الريف
من وقت لآخر ، وقضاء أيام بل احيانا الساعات فيه ، يضىء بصيرتنا
ويقرب ما بيننا وبين الطبيعة ويحملنا على التخلص من الزيادات
والنوامى التى تنمو حولنا كما تنمو الأعشاب والطفيليات حول
السفينة فتعطلها عن الملاحة . فان غادى لم يخسر حين نزع ١٥
قطعة من الملابس الحضارية واكتفى بقطعة واحدة . اذ الواقع
انه كسب . أو بكلمة اصح : هو كسب من حيث القيم البشرية
وخسر من حيث القيم الاجتماعية .

واحيانا حين أقعد فى الريف وأتأمل القمر وهو يحيل كل
شئ على الأرض الى خلق سحرى ، أو حين أتأمل الشفق فى
رائعة جماله ، أو حين اخرج فى الفجر أنتظر بزوغ الشمس

والدنيا هادئة صابحة كأنها لم تخلق إلا منذ دقائق ، او تأمل
اسراب الغربان وهي عائدة الى عشائها عند الغروب ، او اليام
وهو يغازل على استحياء وفي طمأنينة ، او حين تأمل هذه
الحرب الخفية السرية بين النبات والحيوان في ديسة او خيمة
على جدول ، أتعجب من انسان يرضى بقضاء دقيقة واحدة فيما
يسميه قتل الوقت على القهوة بدلا من ان يجرى ساعياً لاهثاً
الى الريف كي يختبر هذه الدنيا فى اعماقها وصميمها .

وانعجب من انسان ، او بالأحرى انسانية ، تعتقد الجمال
فى عقد من اللؤلؤ او قلادة من الألماس مع ان جبلا من هذه
الجواهر لا يساوى فى جماله جمال الشفق او القمر .

ويفشو الجهل بالطبيعة ، اى بالدنيا ، حتى نجد انسانا يعرف
طائفة من المعارف المكروسكوبية عن الأدب او العلم . وهو
يجهل هذه الدنيا العظيمة وطنه الأول . فلا يعرف روائعها
من جماد ونبات وحيوان .

وقد جزأتنا الوطنية اجزاء على هذا الكوكب . حتى صرنا
لانشاق الى رؤية جبالنا الشامخة مثل هملايا او مساقطنا الرائعة
مثل نياجرا . لأننا نحس كأن جبل هملايا هو ملك خاص بالهنود
ونياجرا هو ملك خاص بالأمريكيين .

بل الواقع أننا لا نشفق الى رؤيتهما لأن القيم الاجتماعية قد تغلبت علينا . فنحن نهتم باقتناء البهارج « الجميلة » بدلا من الاهتمام بالاقتناء النفسى لجمال هذا الكوكب . وكثيرا ما ادخل البيوت التى تمتاز بمحادثات فاجد اشجارا أسأل اصحابها عن اسمائها فلا يعرفون . . . لأنهم انما غرسوها انسياقا وراء العرف وليس تقديرأ لقيمة النبات او احساساً بان الشجر قريبنا نحن . وهم يعيشون فى وحدة وجودية ولذلك لا يهتمون بالتعرف الى اسمه او اصله .

وأحيانا أجد من الحسن أن أرد بعض الداهلين الى الوجدان واعيد اليهم القيم البشرية بان أسأل احدهم : هب انك اصبت بمرض قاتل ووثقت من الاطباء أنك لن تعيش على هذا الكوكب سوى عام واحد . ثم خيرت بين ان تقتنى الف اقة من الألباس واللؤلؤ ومئة قنطار من الذهب ، او تقضى هذا العام الباقي من عمرك على هذا الكوكب فى زيارات رائعة الى القطب الشمالى وجبال هملايا ومساقط نياجر او غابات افريقيا ترى بواسق الشجر ووحوش الحيوان وتشترك فى صيد القيطس عند القطب الجنوبى وترى الفيلة فى غاباتها فى الهند . اجل . وفوق ذلك تعرف الشعوب البشرية فى الهند واليابان ونروج واستراليا ،

وترى الانسان البدائي والانسان المتوحش والانسان المتمدن.
ومقدار التدمير الذي أحدثه هذا الاخير بكنوز كوكبنا .

لو خيرت بين هذين لاخترت بلا شك أن تقضى عامك في
زيارة الارض التي عشت فيها ماضى عمرك وأنت محبوس
محبوز في بقعة معينة تظن أنها كل شيء وتقضى سنئك في اقتناء
بهارج ليس لها غير القيمة الاجتماعية التي تعمينا عن
الاستمتاع بكوكبنا

ولا بد أن البشر في المستقبل سينفضون عن عوائقهم
التكاليف الباهظة العديدة التي يتحملونها الآن من الحضارة
ويفكروا في القيم البشرية . وسوف يحدون في الآلات المنتجة ،
ل في الطاقة الذرية ، ما يجعل العمل الإنتاجي سهلاً لا يحتاج
منا إلى قضاء الوقت أو الجهد العظيمين ، وعندئذ يعود هذا
الكوكب وطن البشر جميعاً . وعندئذ تصير الجبال والبحيرات
والغابات ، بما تحفل به من حيوان ونبات ، كنوزاً يحتفظون بها
ولا ينقطعون عن زيارتها

والى أن نصل الى هذه الحال يجب ان نذكر أنفسنا على
الدوام بضرورة اتصالنا بالطبيعة ويجب أن نحتال بالتوفيق
بين ضرورات العيش والمجتمع واللجوء الى الريف . ويجب

ان تكون لنا هوايات ريفية طبيعية . فان صيد السمك ينزعنا
أحياناً يوماً كاملاً من الوسط الحضارى الصناعى الى وسط
طبيعى . وكثير من المفكرين يحتاج الى مثل هذه الهواية التى
تختمر فيها السكينة وقت السكينة عند شاطئ النهر ثم يودى
اختيارها الى تهيئة الوجدان للإنتاج المستمر

اجل يجب ان نتنبه على الدوام الى القيم البشرية ، ولا
نفساق فى قيم اجتماعية تستعبدنا ، ويجب ان نذكر ان الطبيعة
هى الأرض والنهر والجبل والغابة والبحر والصحراء والنبات
والحيوان ، هى كنزنا الأول الذى يجب ان نقتنيه اقتناءً نفسياً
وندرس جماله وتستمتع به وذلك بالإتصال الذى لا ينقطع به .

الاتجاه والرؤيا

الاتجاهات والميول والغايات هي عادات كامنة تسكف عواطفنا وتوجه نشاطنا وتثير اهتمامنا . وكثير من النجاح أو الخيبة يعزى إلى الاتجاه والغاية . لأن النفس تبقى راكدة ليس لها اهتمام . فإذا تعينت لها غاية ، يهدف إليها النشاط ، نشطت . كذلك الاتجاه يعين الأسلوب الذي نعيش فيه .

اعتبر صليبا أو طالبا يتجه نحو الأولوية في المدرسة وينصبها غاية . فهو يكدر ويتعب ويثابر كي يحقق هذه الغاية . ويعود هذا الاتجاه أسلوبه في الدراسة بحيث أنه يبتئس كثيراً إذا زحزحه آخر عن مركزه الأول . فهنا اتجاه قد صار عادة كامنة تسكف العاطفة وتوجه النشاط وتثير الاهتمام . وليس من الضروري أن يكون هذا التلميذ أذكى من غيره من المتخلفين عنه . وإنما هو يمتاز منهم بالاتجاه والغاية . وامتيازهم هذا عليهم عاطفي وليس ذكائياً . لأن الاتجاه يحرك العاطفة وهذه تحرك النشاط الجسمي أو الذهني .

اعتبر كلباً جائعاً ، وآخر شبعاناً . فالأول يتحرك بعاطفة الجوع ويمشي وأنفه للأرض يبحث عن الطعام . وهو في هذه

الحركة الجسمية متحرك العاطفة بالجوع متحرك العقل بالتفتيش .
وأنفه يرشد عقله كما ترشد عيوننا عقولنا . ولكن اعتبر الآخر
الشبعان فإنه قاعد راكد أو نائم .

فالعواطف هي المواطر التي تحركنا . والاتجاهات والميول
والغايات إنما هي عواطفنا التي نتحرك بها إلى الدراسة والجد
وغير ذلك . وهي كما تحرك أجسامنا تحرك أيضا أذهاننا ، فتنبه
بعد الغفلة ونشط بعد الفتور .

والتفاؤل والتشاؤم ، وكذلك الطموح والركود ، اتجاهات .
ولكل منا خارطة روحية أو ذهنية أو نفسية يرتسم بها العالم
ويحدد ما فيه من قيم وأوزان اجتماعية أو بشرية . وبهذا جميعاً
يتجه نحو غاية أو يرى رؤيا ويتخذ أسلوباً . فالمتفائل يتحمس
ويتحرك ويجد لذة العيش . والمتشائم يتبدل ويركد ويجد الحياة
مأسخة لا يتطعمها . ومن هنا مثلاً قيمة الدين عند المؤمن . فإنه
يجد فيه الرؤيا كما يجد الأسلوب . فيكون الدين له بمثابة
الصابورة التي تتزن بها حياته ولا تتقلقل إذا ضربتها الزعازع
والسكوارث .

والرؤيا هي ثمرة التفاؤل . لأن المتشائم لا يرى رؤيا . فلا
يمكن مثلاً أن تكون اشتراكيا تؤمل المساواة والإخاء بين

البشر إلا إذا كنت متفائلا . والعكس صحيح . لأن الرجعي المحافظ يؤمن بأن الشر غالب على الطبيعة البشرية التي لا تتغير ولا يمكن معالجتها . فهو لذلك متشائم بلا رؤيا . ولذلك يكافح الأول . ويركد الثانى .

وقس على هذا . فان الرؤى والمثليات ، كلتاهما تكسبنا روح الكفاح وهذا الروح يحملنا على الدراسة والرقى . فنجد لذة الحياة فى الكفاح كما نرتقى به .

الكفاح ضد الاستعمار والامبريالية ، والكفاح ضد التعصب الدينى واللونى ، والكفاح ضد المرض والجهل والفقر والظلم ، كل هذا تتحرك به عواطفنا وتنشط . بل كدت أقول : تتذكى عقولنا . ونحن بهذه الأنواع من الكفاح لانخدم أمتنا فقط بل نخدم انفسنا بترقية شخصيتنا ونجعل حياتنا حافلة بشئون ومشكلات اجتماعية وبشرية تجعلنا نتعمق ونتوسع فى الحياة .

وربما كان أعظم الاتجاهات اتجاه الحب باعتباره أسلوبا للعيش . لأن الحب يزيد الفهم . أى اننا نفهم أكثر عندما نحب ونفهم أقل او أحيانا لا نفهم عندما نكره . ألا ترى أن الأم تفهم الشيء الكثير من إيماءة طفلها أو أى طفل آخر إذا كانت توجه وجهه الحب . . فى حين غيرها الجامد أو غير المبالي

أو الكاره ، لا يفهم شيئاً ؟ .

وهناك من يقول إن الحب يعنى . ولكن الحقيقة أن
الحب يبصر ويفتح الذهن للفهم والمعرفة . ولكن الكراهة
والحقد والبغض والنفور ، كل هذه تعنى وتخشى على عيوننا
وعقولنا فلا نبصر ولا نفهم .

والرجل الذى يحب الحياة الفنية ، يحب الإنسان والطبيعة ،
ويحب الثقافة ، يجد أنه بقدر السعة فى حبه ، يزداد فهمه وتعمقه
ورغبته التى لا تنقطع فى الاستزادة من الفهم والدرس
والاستطلاع . ثم هو بهذا الحب يجد الرؤيا التى يهدف إليها
فى اصلاح منشود أو ظلم يرفع أو اختراع يحقق . فيعيش سعيداً
بهذه الأفكار ويشع ضياء على كل ما يمسه كأن ذهنه مفسفر
يضىء على ما حوله .

ومثل هذا الرجل يدين بدين مقدس . ولا عبادة بأنه يخالف
التقاليد . لأن الدين هو نقطة التبلور فى اختباراتنا وثقافتنا .
والرجل الذى يختبر كثيراً ويدرس كثيراً ويتجه وجهة الحب
لا بد أن يصل إلى هذه النقطة وأن يرى رؤيا الدين . ومن هنا
كفاحه وإنسانيته لأنه فى جميع كفاحه الماضى إنما كان يحاول
أن يكون إنساناً إنسانياً وأن يحمل البشر على أن يكونوا
إنسانيين .

وإذا كان رجل التقاليد يتبزه بأنه ملحد أو كافر لأنه يضل
في اشتباكاته الثقافية ، فإن غيره من المتعمقين يعرف إيمانه ،
هذا الإيمان الذي وصف به فولتير في كفاحه للمتعصبين
والمستبدين أزام رجال التقاليد من كهنة رجال الدين المسيحي
في فرنسا . ونحن الآن نعرف أن الدين بل القداسة كانت في
قلب فولتير . وأن الكفر كان قلوب أولئك السكينة .

وخلاصة القول إن فن الحياة يقتضي أن تكون لنا اتجاهات
وميول تلتهم إلى رؤيا . فنكسب منها المذهب البشري بل الدين
ونجهد ونخدم في تفاؤل وحب ، نحب الإنسان والشرف والمجد
والصحة والخير ونحب الحيوان والنبات والجمال والانهار
والرسوم الفنية والمدن التاريخية . وبذلك لا نركد بل نبقى على
نشاط دائم مكافئين محبين للخير كارهين للشر .

الحياة مغامرة

عندما تتأمل القصص السامية التي ألفها كتاب خالدون نجد أننا إنما نقيس هذا السمو بشيئين : أما بشخصية فذة تغمر القصة وتجعل من العيش اقتحاماً ، وتجدر مرح الحياة في المغامرة والدخول في الغمر العباب دون القناعة بالشواطيء والمخاضات ، وأما نجد ، بدلا من هذه الشخصية ، مشكلة حيوية عظمى نصل فيها إلى الأعماق فنفهم أكثر ونعرف أكثر في الحياة .

ومع أننا نقرأ كثيرا فانه قلما يخطر ببال أحدها أن يعيش في هذه الدنيا كما لو كان بطالا في قصة سامية . وذلك بأن يكون هو نفسه شخصية فذة أو يكون قد اعتنق مشكلة من مشكلات البشر الحيوية فيطابق بينها وبين نفسه ويعيش لها . فهي هو وهو هي . ولكن الواقع أن كثيرين منا ، على الرغم مما قلنا ، يطابقون بين حيواتهم وبين القصص التي يقرأون . فالشاب الذي ينكب على قراءة قصة ما إما يطابق بين نفسه وبين هذه الغراميات المتأججة في القصة . والفتاة التي تدمن الذهاب إلى الدور السينمائية إنما تطابق بين نفسها وبين فتيات الدراما التي تشاهدها . وهي تعيش ، بجميع إحساساتها ، فيما ترى من اقتحامات هؤلاء الفتيات . ولكن ، وهذا هو المهم ، هذه القصص والدرامات ليست

سامية . ولذلك فأنت المطابقة بين قارئها أو مشاهدتها وبين
ابطالها أو حوادثها ليست مما يرفع أى ليست مما يساعدنا على
أن نجعل حياتنا سامية نعيشها في فن وحنق وتأنق ومجد .

ويجب أن نجعل حياتنا مغامرة . بل هي كذلك من أول
ساعة نخرج فيها من الرحم إلى هذا العالم . فأن الموتى الذين
لا يستطيعون هذا الخروج كثيرون جداً . فإذا كانت بداية حياتنا
مغامرة فيجب إلا يغيب عنا هذا الرمز ويجب أن نستبقى هذا
الشمار سائر عمرنا . ويجب إلا ننسى أبداً أن الطمانينة التي
نتوخاها هي على الدوام جرئية ونسبية وظرفية . لأن الطمانينة
التامة هي الموت ،

ومن أجمل وأحكم الكلمات التي خالفها لنا نيتشه قوله : كل
مالا يقتلني يقويني . وأيضاً قوله : تش في خطر . وذلك أن
الحياة اختبارات فأذا واجهنا خطراً وخرجنا منه دون أن
يقتلنا فقد كسبنا الاختبار وازددنا بذلك عرفانا بالدنيا وحكمة
في الحياة . وإذا عشنا في خطر زال عنا الذهول الذي تتسم به
العامة وصرنا في يقظة وتنبه وذكاء وفهم . فتكون الدقائق عندنا
بمشابة الساعات عند غيرنا . والساعات بمشابة الأيام .

والحياة القصيرة الحافلة بالمغامرات والاقتحامات خير من

حياة طويلة هزيلة يعيشها الإنسان في ذهول، كأنه بلا وجدان .
والمخترع والمكتشف كلاهما يعيش مغامراً لأنه يسير في أرض
مجهولة لا يعرف نهايتها . وهو في هذا الاكتشاف أو الاختراع
يحس من لذة الحياة ما يجعله ينسى جميع المشقات والمصاعب .
ومن منا لا يحب مغامرة كولو مبيسة يعيش فيها شهرين أو ثلاثة
أشهر فقط وهو يتطلع إلى قارة جديدة ويكاد يهبط عليها بدلاً
من قضاء مئة سنة وهو منزور في شارع لا تضيق حدوده الجغرافية
فقط بل تضيق فيه أيضاً حدوده الذهنية والنفسية . . ؟

ونحن نعجب بحياة نابليون أو غاندى لاقتحامات الأول
الحربية واقتحامات الثانى الروحية . ونقرأ سير القديسين
والمصالحين والمخترعين في شوق لأننا نطابق بينها وبين أنفسنا
في رغبة حارة للاقتحامات التى امتحنت حياتهم فخرجوا منها
أوفر حكمة وأعمق فهماً .

ولنا مما قلنا مغزيان . المغزى الأول ألا تلتزم الدعة
والطمأنينة فنجحهم وننقلص ونراجع أمام الأخطار . والمغزى
الثانى إلا نبالغ فى شأن الكوارث التى تصادفنا . لأننا ، مادامنا
لم نمت فيها ، سنعيش وقد كسبنا اختبارها ومعرفتها اللذين
ازددنا بهما فهما وحكمة .

وكتب الأدب العالى تكسبنا من الاختبارات ما لا يحصل

عليه في مجتمعتنا . والشعر العالي هو احسن ما في الأدب . لأن الشاعر يعرف انه لن يشير في القارىء حماسة او يلهب فيه ناراً الا اذا ارتفع عن المبتذل المألوف من الاختبارات سواء في الموضوع ام في التعبير . فهو يحملنا على اقتحامات ذهنية حتى ولو كانت هذه الاقتحامات مقصورة على التعبير واستخراج المعنى الخفى الفذ من الموضوع الواضح المبتذل .

واماأل ايها القارىء ، أى انسان متقدم فى السن . فإنه لا بد أسف على تلك الفرص التى عرضت له ولم يغامر فيها بل آثر الدعة والطمأنينة . وهو لا يأسف لأن الفرصة كانت تلوح له من الفرص الكاسية بل لأنه يحس انه كان يكون أسعد لو انه اختبرها وعاش فيها .

وقد كان المتنبي يقول :

وكل شجاعة فى المرء تغنى ولا مثل الشجاعة فى الحكيم
الشجاعة مع الحكمة تغنى فى النهاية . العاطفة مع الوجدان
أى الشراع مع الدفة . العاطفة تدفع والوجدان يوجه .

والخوف من الاقتحامات هو فى صميمه خوف من الحياة
أو هو أسف على الخروج من الرحم وحنين الى العودة
إليه . والرجل الذى يخاف لا يعيش غير تلك الحياة النباتية
البقلية ، يعيش آمناً فى مكانه يخشى ان يتزحزح لئلا يسقط .